مجلة جامعة الملك سعود، م٢، العلوم التربوية (١)، ص ص ١٥١-١٧٦ (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

تأثيرات الثنائيــة اللغوية

محمد علي الخولــي

أستاذ، قسم إعداد المعلمين، معهد اللغة العربية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. يهدف هذا البحث إلى التعرف على تأثير الثنائية اللغوية على كل من الذكاء والمهارات اللغوية والتحصيل الدراسي والتكيف الانفعالي والوظائف المعرفية واستعراض الدراسات في هذا المجال وكشف أسباب اختلاف نتائج هذه الدراسات.

وقد توصلت هذه الدراسة إلى مايلي:

١- أشارت بعض الدراسات إلى أن الثنائية تضر بالذكاء. وبعضها أشار إلى أن الثنائية تزيد من الذكاء. وبعضها أشار إلى أن الثنائية لا تأثير لها.

٢- فيما يتعلق بالمهارات اللغوية، أشارت بعض الدراسات إلى أن الثنائية تضر بهذه المهارات. وبعضها أشار إلى أن الثنائية تضر ببعض المهارات فقط. وأشار بعضها إلى أن الثنائية تحسِّن هذه المهارات.

٣- بالنسبة للتحصيل الدراسي، دلت بعض الدراسات على أن الثنائية ذات تأثير إيجابي. ودل بعضها على أنها ذات تأثير سلبي.

٤- بالنسبة للتكيف الانفعالي، دلت بعض الدراسات على أن الثنائية ذات تأثير سلبي. ودل بعضها على أنها ذات تأثير إيجابي. ودل بعضها على أن التأثير يختلف باختلاف الأفراد والظروف المحيطة بهم.

٥- بالنسبة للوظائف المعرفية، دلت بعض الدراسات على أن الثنائية تنمي القدرة على التجريد وتزيد من المرونة العقلية. ودلت دراسات أخرى على أنها لا تؤثر في الوظائف المعرفية.

٦ـ من أسباب اختلاف نتائج الدراسات عدم ضبط العوامل أحيانًا، وعدم تحديد نوع الثنائية اللغوية، وتحيز أدوات القياس، والتفسير الخاطىء للنتائج، وتفاوت الدراسات في طول التجربة، وإهمال الاختبارات القَبْلية، والتحيز في اختيار العينات، وتفاوت أحجام العينات، والإفراط في التعميم، واستخدام أدوات قياس غير موثوقة، وعدم استخدام المعالجة الإحصائية المناسبة. لقد وقعت معظم الدراسات في خطأ أو أكثر من الأخطاء السابقة، مما أدى إلى اختلاف الدراسات في النتائج.

مقدمة

لقد أجريت دراسات عديدة حول تأثيرات الثنائية اللغوية على كل من الذكاء والمهارات اللغوية والتحصيل الدراسي والتكيف الانفعالي والوظائف المعرفية لدى الفرد الثنائي اللغة. ولقد توصلت هذه الدراسات إلى ثلاثة أنواع من الاستنتاجات. بعضها توصل إلى أن الثنائية اللغوية تؤثر سلبيًا على الفرد من جميع الوجوه أو بعض الوجوه على الأقل. وبعضها توصل إلى أن الثنائية اللغوية تؤثر إيجابيًا عليه مقارنة بالشخص أحادي اللغة. وبعضها توصل إلى أن الثنائية اللغوية لا أثر لها على الإطلاق وأنه لا فرق بين الثنائي اللغة والأحادي اللغة. وسنعالج في هذا البحث تأثيرات الثنائية اللغوية على الجوانب المختلفة لحياة الثنائي والدراسات التي أجريت في هذا المجال وأسباب اختلاف نتائج هذه الدراسات.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

١ـ ما تأثير الثنائية اللغوية على الذكاء لدى الثنائي اللغة؟

٢ـ ما تأثير الثنائية اللغوية على المهارات اللغوية لدى الثنائي اللغة؟

٣ـ ما تأثير الثنائية اللغوية على التحصيل الدراسي لدى الثنائي اللغة؟

٤ـ ما تأثير الثنائية اللغوية على التكيف الانفعالي لدى الثنائي اللغة؟

٥ـ ما تأثير الثنائية اللغوية على الوظائف المعرفية لدى الثنائي اللغة؟

٦ـ ما أسباب اختلاف نتائج الدراسات في هذا الميدان؟

تحديد بعض المصطلحات

يقصد بالثنائية اللغوية في هذا البحث أن يعرف الفرد لغتين فقط بأية درجة من درجات المعرفة وأن يستخدمها بأية درجة من درجات الاستخدام. واللغتان عادة هما لغته

الأولى، ويرمز لها هنا بالرمز ل١، ولغته الثانية، ويرمز لها في هذا البحث بالرمز ل٢. وقد يشار إلى الثنائية اللغوية بالثنائية فقط من باب الاختصار. ويشار إلى الفرد بأنه الثنائي اللغة أو الثنائي. وأما من يعرف لغة واحدة فيشار إليه على أنه الأحادي اللغة أو الأحادي اختصارًا، ويشار إلى الحالة بالأحادية اللغوية أو الأحادية اختصارًا. والثنائية اللغوية أنواع عديدة منها الثنائية المتوازية حين يتعرض الفرد للغتين معًا ومنها الثنائية المتتابعة حين يتعلم الفرد لغة بعد الأخرى.

الثنائية اللغوية والذكاء

لقد دلت بعض الدراسات على أن الثنائية اللغوية bilingualism ذات أثر سلبي على الذكاء. فلقد رأى وزغيربر Weisgerber سنة ١٩٣٥م أن الثنائية تدمر الذكاء والإبداع وأنها إذا انتشرت في شعب ما فإنها تدمر ذكاءه وإبداعيته لأجيال طويلة. وكان هذا موقف كثير من العلماء الألمان دعمًا لنظرية نقاء العرق ونقاء اللغة الألمانية، [١، ص١٦٨].

ولقد توصل باحثون آخرون في دراسات أمريكية تمت بين سنة ١٩٢٩م وسنة ١٩٣٩م [١، ص١٦٩] إلى أن الشخص الثنائي اللغة يفكر بلغة ويتكلم بأخرى، مما يجعله مترددا عقليًا ومرتبكًا. وقال هؤلاء الباحثون إن الثنائية عبء على الطفل وتجعله يعاني من إنهاك عقلي لأنه موزع بين لغتين. وتوصلوا إلى أن الثنائي اللغة أدنى ذكاء من الأحادي اللغة حسبما تدل اختبارات الذكاء. ومن هؤلاء الباحثين ميشيل Mitchell ورغ Rigg وسميث Smith.

ولقد وجد ساير Saer [٢، ص٢٢١] سنة ١٩٢٣م أن الثنائيين bilinguals أدنى في معامل ذكائهم من الأطفال الأحاديين monolinguals. ووجد دارسي Darcy سنة ١٩٤٦م أن العمر العقلي للأحاديين يزيد عن العمر العقلي للثنائيين. ووجد ستيوارت سنة ١٩٥١م أن الأحاديين يتفوقون على الثنائيين في اختبارات الذكاء اللفظية والعملية.

ولقد تم التوصل إلى تلك الاستنتاجات بناء على دراسات لم تكن محكمة التصميم. ولم تكن المجموعة الضابطة control group محكمة التوازن مع المجموعة التجريبية experi-

mental group . ولم يكن هناك من سبيل للتأكد من أن تفوق الأحاديين على الثنائيين في الذكاء يعزى إلى الثنائية أو إلى ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة لدى الثنائيين. فقد يكون الثنائي فعلا أقل ذكاء. ولكن كيف يمكن الجزم بأن الثنائية هي السبب أم أن هناك عوامل أخرى ذات أثر؟

وفي سنة ١٩٣٧م، درس آرسينيان Arsenian [٢، ص٢٢٠] الدراسات السابقة في الموضوع ذاته، فوجد أن ٦٠٪ من الدراسات السابقة توصلت إلى أن الثنائية تعيق الذكاء بشكل حاد، وأن ٣٠٪ من الدراسات توصلت إلى أن الثنائية تعيق الذكاء إعاقة طفيفة، وأن ١٠٪ من الدراسات أفادت أن الثنائية لا تؤثر سلبيًا على الذكاء. ورأى آرسينيان أنه لابد من ضبط الدراسات بشكل أفضل حتى نتوصل إلى استنتاجات موثوقة. ولقد توصل إلى أن الثنائية لا تؤثر على الذكاء. ولكن دراسته انتُقِدت لأنه اعتمد في قياس الذكاء على اختبارات ذكاء لم تكن قد قننت في زمانه أي أنه استخدم أداة قياس مشكوك في صدقها وثباتها.

ولدى مراجعة بعض الباحثين لدراسة ساير التي أجريت عام ١٩٢٣م تبين أنه من ناحية إحصائية لا يوجد فرق مهم بين معامل الذكاء intelligence quotient لدى الأحاديين ومعامل الذكاء (IQ) لدى الثنائيين وأن الفرق الظاهر لصالح الأحاديين هو فرق غير مهم أو غير ذي دلالة إحصائيًا. وقد تمكنوا من كشف عدم أهمية الفرق بفضل تقدم علم الإحصاء ونضوجه، الأمر الذي لم يكن متيسرًا في زمن ساير في أوائل القرن العشرين.

ولقد دلت دراسات أخرى أجراها بارك Barke سنة ١٩٣٣م وجونز Jones سنتي ١٩٥٢ و١٩٦٦م [١، ص١٧٠] على أطفال في ويلز على أن نتائج المقارنة بين الأحاديين والثنائيين في الذكاء تختلف باختلاف وسيلة القياس. فإذا قيس الذكاء باختبار لفظي تفوق الأحاديون على الثنائيين. وإذا قيس باختبار عملي performance test انعدم الفرق بين المجموعتين. ويكون الفرق لصالح الأحاديين كبيرًا إذا كان اختبار الذكاء باللغة الثانية المشتركة بين المجموعتين، كما هو الحال في العادة، وخاصة أن الثنائيين يكونون أقل إتقانًا للغة الثانية من الأحاديين الذين يتكلمونها كلغة أولى. ويزداد الفرق لصالح الأحاديين إذا

ركـز الاختبار على سرعة الاستجابة، حيث إن أداء الأحاديين بلغتهم الأولى أسرع من الثنائيين باللغة ذاتها.

ولقـد دلت دراسـات على أن أطفـال الـريف أقل ذكاء من أطفال المدينة حسب اختبـارات الـذكـاء. ولكن عنـدما حيِّد عامل مهنة الوالد، اختفى الفرق بين الثنائيين والأحاديين في اختبارات الذكاء اللفظية واختبارات الذكاء العملية، حسبما أفادت دراسات قام بها موريسون Morrison في ويلز [١، ص١٧١].

ووجـد دارسي Darcy أن النتـائـج المتناقضة للدراسات المختلفة مردها أساسًا إلى اختلافات في أساليب البحث وإلى غياب تعريف موحد لمصطلح الثنائية اللغوية التي تُجْرَى عليه الدراسات. كما أن بعض الدراسات فشلت في عزل عامل البيئة عن عامل الثنائية. كما أن اختبـارات الـذكاء اللفظية كانت متحيزة لأحاديي اللغة لأنها تختبرهم باللغة التي يتقنونها بينما تختبر الثنائيين باللغة التي لا يتقنونها.

ولقـد توصلت بعض الدراسات إلى نتائج تفيد أن الثنائية تزيد من الذكاء. ولقد حيِّدت إحدى الدراسات عوامل العمر والجنس والمنزلة الاقتصادية الاجتماعية. ووجدت هذه الدراسة التي قام بها بيل Peal وزميله سنة ١٩٦٢م [١ ، ص١٩٠] أن الثنائيين يفوقون الأحـاديين في الـذكاء في اختبار الذكاء العملي واختبار الذكاء بشكل عام (أي الاختبار اللفظي والاختبار العملي).

ولقد انتقد بعض الباحثين دراسة بيل وزميله هذه على أساس أن عينة الثنائيين عينة متحيزة biased sample من أساسها. فقد اختارا عينة من الثنائيين يتقن كل فرد منها اللغة الإنجليزية واللغـة الفرنسية بشكل متوازن وهو في العاشرة من عمره. ويرى البعض أن الطفل الذي يتقن لغتين قراءةً وكتابّة وكلامًا وهو في العاشرة من عمره هو طفل موهوب وذكي بشكل فوق المعدل. ولهذا كانت طريقة اختيار الثنائيين تثير شكًّا في أنهم أذكى من عينة

الأحاديين. وهذا يعني أن هناك خللاً في ضبط اختيار العينات، مما يلقي ظلالاً من الشك على نتائج دراسة بيل وزميله.

ولقد قام البعض بدراسات طولية longitudinal studies ، أي مراقبة الأحاديين والثنائيين على مدى سنوات وقياس معامل الذكاء للمجموعة نفسها [٢ ، ص١٢١] بشكل تكراري مرة كل سنة. ولقد قام لامبرت Lambert وزميله [٢ ، ص١٢١] بدراسة طولية سنة ١٩٧٢م في كندا وتبين أن الثنائية لم تؤثر على الذكاء أي أثر سلبي طويل الأمد.

الثنائية اللغوية والمهارات اللغوية

ما تأثير الثنائية على لغتي الفرد؟ لاشك أنه من الصعب أن يجد المرء نفسه في بيئة يسمع فيها لغتين بالتساوي ويتكلم فيها لغتين بالتساوي ويكتب لغتين بالتساوي ويقرأ لغتين بالتساوي. إن الثنائية المتوازنة ليست سهلة المنال. ويلغب أن الفرد يتعرض للغة أكثر من تعرضه للأخرى ويستخدم لغة أكثر من استخدامه للأخرى حسب ظروف البيئة ومقتضيات الاتصال اللغوي. فهل هذا يعني أن اللغة المستعملة أكثر يتقنها الفرد على حساب اللغة المستعملة أقل؟ وهل تضر الثنائية ل١ أم ل٢ أم اللغتين معًا؟

لقد دلت بعض الدراسات على أن الثنائي يواجه مشكلات عديدة في نموه اللغوي. ويرى البعض أن الثنائي لديه مفردات نشيطة active vocabulary ومفردات خاملة passive vocabulary أقل عددًا من مفرادت الأحادي، لأن على الثنائي أن يحفظ كلمتين لكل معنى. فالشيء الذي هو كرسي مثلاً يحفظ له الثنائي كلمتين، واحدة باللغة ١ وواحدة باللغة ٢. ويرى البعض أن مجموع كلمات ل١ وكلمات ل٢ لدى الثنائي أقل من كلمات نظيره الأحادي، لأن الأحادي يركز على لغة واحدة، في حين أن الثنائي تتنازعه لغتان. ويميل الثنائي إلى استخدام عدد أقل من الكلمات مما يفعل الأحادي. كما أن مفردات الثنائي تصل إلى الاختلاط بسبب ميله إلى التحول والاقتراض من لغة إلى أخرى.

وترى إحدى الدراسات أن الثنائي يميل إلى استخدام جمل أقصر، كما أنه يُكْثر من الجمل غير التامة، ويقلل من استخدام الجمل المعطوفة والمركبة، ويكثر من الجمل التعجبية

ويقلل من الجمل الاستفهامية مقارنة بالشخص الأحادي (٤، ص١٥٣). كما أن الثنائي يتميز بالقوالب النحوية المرتبكة ونظم الكلمات الغريب وأخطاء ناجمة عن التدخل اللغوي. كما أن الطفل الثنائي يرتكب أخطاء أكثر من الطفل الأحادي في الأفعال والحروف الأسماء والضمائر والتعابير الاصطلاحية. ولكن هذه الدراسة وقعت في خطأ التعميم لأن الثنائيين الذين كانوا موضع الدراسة لم يسمعوا سوى لهجة كانت في نظر الباحثة (١٩٣٩م) لهجة غير معيارية. وهذا يعني أن هؤلاء الثنائيين لم يكونوا ضعافًا في ل٢، بل هذه هي ل٢ المتداولة في بيئتهم في جزر هاواي.

ويرى البعض أن الثنائية، على العكس من نتائج الدراسات المذكورة آنفًا، تفيد في نمو المهارات اللغوية، بل وتقوي الفرد في لغته الأولى، وتجعله أقدر على التعامل مع اللغات عمومًا وعلى تعلم لغات أخرى. ولقد توصلت دراسة أجراها أنستاسي Anastasi سنة ١٩٦٠م [١، ص١٧٣] إلى أن الثنائيين يفوقون الأحاديين في معدل طول الجملة ونضوج تركيب الجملة الإنجليزية. وتوصلت دراسة أخرى إلى أن مفردات الثنائي تزيد عن مفردات الأحادي، وهي دراسة توتن Totten سنة ١٩٦٠م. وتوصلت دراسة أخرى إلى أن الثنائي في مستوى الجامعة لا يشكو من مشكلات لغوية، بل ولديه بعض المزايا مقارنة بالأحادي. ودلت دراسات أخرى على أن الثنائية تؤدي إلى مزايا في النمو اللغوي تفوق النواحي السلبية.

وهناك دراسات تشير إلى أن الإعاقة اللغوية لدى الثنائي تكون في أوجها في سنوات الدراسة الأولى، ثم تبدأ هذه الإعاقة بالتضاؤل، وتعتمد سرعة اختفاء الإعاقة على ذكاء الطفل ومدى تفاعله مع ل٢. ويبدو أن الإعاقة اللغوية هنا لا تأتي من الثنائية ذاتها، بل من كون ل٢ لغة جديدة على الطفل وأن عليه أن يتعلمها إجباريًا.

والمشكلة في هذه الدراسات أنها متعارضة في نتائجها ومثار شك في تصميمها design. فهي تقوم على أساس المقارنة بين مجموعة أحادية اللغة ومجموعة ثنائية اللغة واختبار المجموعتين في اللغة المشتركة بينهما، ثم المقارنة بين النتائج. والخلل في هذا التصميم أن

اللغة المشتركة تكون بالتأكيد كاملة النمو لدى الأحاديين لأنهم لا يعرفون سواها فهي لغتهم الأولى والوحيدة، وقد تكون غير معروفة جيدًا لدى الثنائيين أو تكون معروفة جيدًا لديهم. وهنا مشكلة ضبط العوامل ذات العلاقة. فلكي تكون المقارنة بين المجموعتين صحيحة، لابد من تحييد جميع العوامل التي قد تؤثر في تعلم اللغة بما فيها عامل المكانة الاقتصادية الاجتماعية لأسرة الطفل. وهناك عوامل النظام المدرسي ومهارات المعلم ومواقف المعلم مع تلاميذه ولغاتهم وذكاء الطفل واستعداده اللغوي العام. وقلَّما قامت دراسة بضبط جميع هذه العوامل ضبطًا تامًّا.

ولقد حاول كارو Carrow في سنة ١٩٥٧م ضبط عوامل العمر ومعامل الذكاء العملي والمكانة الاقتصادية الاجتماعية والمدرسة. وكانت المجموعة الثنائية من أصحاب الثنائية المتزامنة. واختبر المجموعتين في القراءة الصامتة والتهجية والحساب والسمع والمفردات والقراءة والاستيعاب والنطق والكلام. ولقد وجد أن الأحاديين أفضل من الثنائيين في دقة القراءة الجهرية والاستيعاب وسماع المفردات. وفيما عدا ذلك فلا فروق مهمة بين المجموعتين رغم أن المتوسطات تميل قليلاً إلى صالح الأحاديين. ولكن لم يَثْبُت أن الثنائية تضر بالتهجية وطول الجملة وتركيبها. وهكذا دلت دراسة كارو على أن الثنائية أضرت ببعض المهارات اللغوية ولكنها لم تضر بالمهارات الأخرى [٣، ص ص ٩٥-١٠٥].

وقام ماكنمارا سنة ١٩٦٦م [٤، ص ص ١٤٥-١٥٢] بدراسة ضبط فيها معامل الذكاء العملي والمكانة الاقتصادية الاجتماعية ونوعية المعلمين ومهاراتهم. وقد أجريت الدراسة على ما يزيد على ألف طفل تتراوح أعمارهم بين ٩ و١٥ سنة. ووجد أن الأطفال القادمين من أسر تتكلم $ل_1$ ويعلَّمون بواسطة $ل_1$ أقدر في $ل_1$ من الأطفال القادمين من أسر تتكلم $ل_2$ ويعلَّمون بواسطة $ل_1$. ووجد أيضًا أن الأطفال الذين لغتهم الأم هي $ل_1$ أضعف في $ل_2$ من الأطفال الذين لغتهم الأم هي $ل_2$. ووجد أن الأطفال الذين لغتهم الأم $ل_2$ ويتعلمون $ل_1$ أضعف في كتابة $ل_2$ وكتابة $ل_1$ من أقرانهم الأحاديين. وهذا يعني أن الثنائي أضعف من الأحادي في كلتا اللغتين، لأنه يتعرض لكل لغة أقل من تعرض الأحادي. ونلاحظ هنا أن ماكنمارا توصل إلى نتائج سلبية تمامًا بالنسبة للثنائية، فهي حسب دراسته

تجعل الثنائي أضعف من الأحادي في جميع المهارات اللغوية وفي اللغتين معًا. وهذا مخالف لنتائج دراسة كارو الذي يرى أن الثنائية تدمر بعض المهارات اللغوية فقط. والسبب في اختلاف النتائج قد يكون أن كارو استخدم عينات من أطفال اكتسبوا الثنائية بطريقة متزامنة في حين أن ماكنمارا استخدم أطفالاً اكتسبوا ل٢ بعد ل١، أي بطريقة الثنائية المتتابعة.

وقد دلت دراسة لامبرت وتكر Lambert and Tucker في سنة ١٩٧٢م [٥، ص ص ١٣٦-١٤٠] في كندا على أن تعليم الطفل بواسطة ل٢ ليس بالضرورة مضرًا بلغته الأولى، ولكن مهارة الطفل في ل٢ لا يمكن أن تصل إلى مستوى مهارته في ل١. وهنا أيضًا يجب أن نلاحظ أن المسألة تتوقف على كمية التعرض quantity of exposure للغة ٢. فكلما زاد التعرض، اقترب مستوى إتقان ل٢ من مستوى إتقان ل١.

الثنائية اللغوية والتحصيل الدراسي

ما تأثير الثنائية على الفرد من حيث تحصيله الدراسي academic achievement ؟ هل تساعده دراسيًا أم تعيقه؟ مرة أخرى أعطت الدراسات إجابات متناقضة عن هذا السؤال.

دلت بعض الدراسات حسبما راجعها جنسن Jensen [١، ص ص ١٧٥-١٧٧] على أن الثنائية تضر بميل الطفل واستعداده لتعلم اللغة وتعيقه في القراءة والدراسة بوجه عام وفي التهجية والتاريخ والجغرافيا بوجه خاص. وقد تؤدي الثنائية في رأي البعض إلى ضعف الميل والمبادأة والاستجابة في الصف. كما قد ينمو لدى الطفل شعور بكراهية المدرسة، مما يؤدي إلى التسرب المبكر منها. وقد يجد الثنائي صعوبة في العثور على وظيفة.

ومن ناحية أخرى، هناك دراسات نفت أي تأثير سلبي للثنائية. بل ترى هذه الدراسات أن للثنائية مزايا تربوية. فالطفل الثنائي يحس بالمكانة والإنجاز، وهو إحساس يفتقر إليه الأحادي. والثنائية تحفز الفرد على المذاكرة والجد. كما تجعله يتفاهم مع أقرانه ويتعداهم إلى عالم آخر من الثقافة والفكر. ويصبح لديه ميل أكثر من الأحادي إلى التاريخ

والجغرافيا والدين والأدب والسفر والفن. وتصبح لديه فرص أوفر اجتماعيًّا ومهنيًّا وخاصة في مجالات التربية والدين والدبلوماسية والكتابة والأعمال [١، ص١٧٨].

ويرى البعض أن الثنائية قد تعيق الطفل في حياته الدراسية الأولى، ولكنها لا تعيقه في المستوى الجامعي، بل إن الثنائي أكثر تفوقًا في الجامعة من الأحادي. ويرى البعض أن بعض الدراسات أخذت عينة متحيزة من الثنائيين نظرًا لانتقاء عينة متميزة منهم.

مرة أخرى وقع العديد من الدراسات هنا في خطأ عدم ضبط العوامل ذات العلاقة. فبعض الدراسات التي وصفت الثنائية بإعاقة التحصيل الدراسي لم تضبط عوامل مهمة مثل الأسرة الفقيرة والموارد الضئيلة والصحة الضعيفة والصراع الثقافي لدى الطفل وصعوبات التأقلم مع المجتمع الجديد وموقف الطفل من المدرسة والتعليم عمومًا. لا يمكن أن نجزم بتفوق الأحادي على الثنائي ونحن نعرف أن الثنائي في أغلب الحالات قد أتى من بيت فقير إلى مجتمع جديد. إذا كان الثنائي متخلفًا دراسيًا فهناك عدة عوامل محتملة، ولا يصح أن يُعْزى تخلفه إلى عامل الثنائية اللغوية وحده إلا بعد ضبط جميع العوامل لدى المقارنة بين مجموعة أحادية وأخرى ثنائية.

ومن مشكلات هذه الدراسات لغة الاختبار. فإذا أردنا اختبار المجموعة (ا) بواسطة اختبار مصاغ باللغة ١ في حين أن هذه المجموعة لا تتقن ل١ بل تتقن ل٢، واختبرنا المجموعة (ب) بالاختبار ذاته وهي مجموعة تتقن ل١، نكون قد حكمنا على الدراسة بالفشل، لأن الدراسة بهذا التصميم متحيزة للمجموعة (ب). ذلك لأن المجموعة (ب) تتقن ل١ والمجموعة (ا) لا تتقنها والاختبار مصاغ باللغة ١. إن التحيز للمجموعة (ب) هنا سيغطي على أية ميزة للمجموعة (ا) ويجعل نتائج الدراسة غير معتمدة.

ويستطيع المرء ببساطة، ودون الدخول في مشكلات تقويم البحوث، أن يقول إذا تعلم المرء مادة دراسية بلغة لا يتقنها فسيؤدي هذا الوضع إلى إعاقة تحصيله في هذه المادة. لا يستطيع أحد أن يرفض هذا الافتراض. إذا علّمت مثلاً شخصًا مادة الرياضيات باللغة

الإنجليزية وهـو لا يتقن هذه اللغـة، فإنه سيكون في وضع سيىء من حيث التحصيل الدراسي في هذه المادة. وفي المقابل، إذا علّمته المادة بلغة يتقنها فإنه سيكون في وضع أفضل بكثير. كثير من الطلاب العرب الذين يذهبون إلى الخارج للدراسة في الجامعات يجدون المصـاعب وينخفض أداؤهم وتتدنى درجاتهم، بل وقد يتركون الدراسة أو يفصلون من الجامعة، لا لأنهم يعانون من تدني الذكاء أو الكسل، بل بسبب عامل قاهر لا يرحم، هو عامل الإعاقة اللغوية، إذ يسمعون المحاضرات ويقرؤون ويكتبون ويؤدون الاختبارات بلغات لا يتقنونها.

إن المسألة لا تتعلق بالثنائية مطلقة هكذا، بل بدرجة الثنائيةdegree of bilingualism. فإذا كان الفرد يتقن كلتا اللغتين فإن الثنائية لا تعيقه دراسيًّا إذا تعلم بواسطة ل١ أو ل٢ أو كلتيهما معًا. ولكن إذا كان الفرد يتقن لغة ولا يتقن الأخرى، وعلّمناه بواسطة اللغة التي يتقنها، في هذه الحالة ثنائيته لا تعيقه دراسيًّا. أما إذا علّمناه باللغة التي لا يتقنها، هنا تعيقه الثنائية دراسيًّا. وإذا أردنا التعبير الأدق يعيقه تعليمه بلغة الأضعف.

والتعليم باللغـة الضعيفـة لدى الفرد يعيقه دراسيًّا من عدة جوانب. أولاً، لا يفهم جيدًا ما يسمع من شرح المعلم وتعليماته. ثانيًا، لا يفهم ما يقرأ فهمًا جيدًا. ثالثًا، لا يجيد التعبير عن نفسه بالكلام. رابعًا، لا يجيد التعبير عن نفسه بالكتابة. خامسًا، إنه بطيء إذا قرأ أو تكلم أو كتب، الأمر الذي يجعله يستغرق وقتًا أطول من العادة في أداء واجباته الدراسية، وقـد ينتهي وقت الـدراسـة دون أن يتمكن من أداء واجباته. وفي الوقت الذي يستطيع الأحادي قراءة الواجب المطلوب ثلاث مرات مثلاً قد لا يكون الثنائي قد انتهى من القراءة الأولى. وهذا يعني أن الأحادي في هذه الحالة أفضل من الثنائي في جميع المهارات اللغوية من حيث الدقة والسرعة على السواء.

ولا تقتصر المشكلة على اللغة وحدها، بل تمتد إلى سائر الموضوعات الدراسية التي تُدَرَّس باللغة التي لا يتقنها الطفل. وهذا يجعل الطفل الثنائي أضعف من الأحادي في فهم المسموع وفهم المقروء والكلام والكتابة وسرعة الأداء في جميع موضوعات الدراسة، مثل الرياضيات والعلوم والتاريخ والجغرافيا وسواها.

ولا تقتصر هذه المشكلة على الأطفال، بل تتعداهم إلى البالغين في الجامعات. فإذا تعلم الطالب العلوم مثلاً بلغة لا يتقنها، كما يحدث للطلاب العرب في الجامعات العربية التي تُدَرِّس العلوم باللغة الإنجليزية أو الفرنسية، فإن هذا يؤثر في الأغلب تأثيراً سلبيًّا على تحصيله الدراسي ومستواه العلمي. ذلك لأنه سيكون أقل استيعابًا وتعبيراً من نظيره الأحادي الذي يتعلم العلوم بلغته الأولى. ولذا ينادي العالمون المخلصون دائمًا بضرورة تدريس العلوم باللغة العربية مع ما في ذلك من مشكلات تتعلق بقلة المراجع العربية، لأن تعليم الطلاب العرب بالعربية، على ما فيه من مشكلات، أقل خطرًا من تعليمهم بلغات أجنبية في جامعات عربية. إذ ما الفائدة أن تكون الجامعة عربية في موقعها أجنبية في لغتها؟ وهذا موضوع طويل ليس هنا مجال التفصيل فيه.

الثنائية اللغوية والتكيف الانفعالي

ترى بعض الدراسات أن الثنائية اللغوية تضر بشخصية الفرد وتجعله يغير مبادئه وقيمه كما يغير لغته حسب مقتضيات المقام والظروف، يتحول في السلوك كما يتحول في اللغة. وترى بعض الدراسات أن الثنائي قد يعاني من التوتر وعدم الاستقرار الانفعالي وبعض الاضطرابات النفسية مثل اللعثمة [١، ص١٧٩].

ويرى البعض أن ما قد يعانيه الثنائي من صراعات انفعالية emotional conflicts ليس مرده إلى الثنائية ذاتها، بل إلى المواقف المعادية التي تقفها بعض الجامعات ضد القادمين الجدد، مما يؤدي إلى تحفظ في الكلام أو انطواء في الشخصية. وحيث لا توجد المواقف المجتمعية المعادية لا تتسبب الثنائية في أية مشكلات انفعالية.

وعلى الأرجح، فإن الثنائية ذاتها لا تسبب مشكلات انفعالية. بل ما يسبب هذه المشكلات عوامل تصاحب الثنائية في العادة، ولكنها ليست جزءاً رئيسًا من الثنائية. فمن المعروف أن الثنائيين قد يكونون من المهاجرين أو الوافدين الجدد. وهؤلاء يكونون عادة من الطبقات الفقيرة، مما يضطرهم إلى إرسال أبنائهم إلى مدارس ضعيفة المستوى والإمكانات. إضافة إلى هذا، فإن الثنائي يتعرض في العادة لضغط ثقافتين مما يؤدي إلى صراع ثقافي.

وهـذا يعني أنه على الثنائي أن يتكيف مع وضع صعب نسبيًّا: لغتين وثقافتين وطريقتين للحياة ومجموعتين من القيم ومجموعتين من العادات.

بهذا المعنى فقط تؤدي الثنائية إلى مشكلات انفعالية لدى الثنائي. فهو ينتمي إلى مجتمعين وإلى بلدين وإلى ثقافتين، الأمر الذي قد يولِّد لديه صراعًا في السلوك واضطرابًا في القيم وشعورًا بالنقص وشعورًا بالغربة وتوترًا نفسيًّا. ولكن، كما ذكرنا، هذه النتائج ليست وليدة الثنائية المباشرة، بل هي وليدة البيئة الاجتماعية، وهي قد تصاحب الثنائية ولكنها ليست نتيجة لها.

وكـان البعض يدعو الثنائيين في مجتمع مثل المجتمع الأمريكي بالأفراد الهامشيين الذين تنقصهم الهوية الذاتية والهوية الجماعية. وهذا قد يكون مبالغة وظلمًا للأقليات، لأن الهامشية قد تنطبق على ثقافتهم، ولكن ليس عليهم شخصيًّا. إذ يستطيع الثنائي أن يكون عضوًا فاعلاً متكاملاً مع جماعته الصغيرة ومع مجتمعه الكبير في آن واحد وأن ينتمي إلى ثقافته الفرعية، أي ثقافة الأقلية، وثقافته الرئيسة، أي ثقافة المجتمع الكبير. وقد قام شايلد Child بدراسة على أمريكيين من أصل إيطالي فوجدهم ثلاثة أنواع: نوعًا تَمَرَّد على أصله الإيطالي وأراد الانـدمـاج الكلي مع الحياة الأمريكية، ونوعًا تمرد على كل ما هو أمريكي وتمسك بالتراث الإيطالي، ونوعًا أراد أن يتجنب الصراع بأن طرد من ذهنه مسألة العِرْق والأصل من أساسها [١، ص١٨٠].

ولقد دلت دراسة تالية قام بها إيلن Aellen وزميله في سنة ١٩٦٩م على أنه في بعض الحالات المماثلة يكون هناك نوع رابع من الناس حقق عضوية ناجحة متوازنة مع كل من الجماعة الفرعية، أي الأقلية التي ينتمي إليها، والجماعة الكبيرة، أي المجتمع الكبير. وقد تبين أن هؤلاء الثنائيين لا يعانون من مشكلات انفعالية أو اضطرابات في الشخصية أو شعور بالغربة أو القلق.

ولقد جرت بعض الدراسات حول تأثير الثنائية على المواقف attitudes من الأقليات العِرْقية واللغوية. هل الثنائي أكثر تسامحًا وأقل تعصبًا من الأحادي ضد الأقليات؟ لقد

دلت دراسة قام بها لامبرت Lambert وزميله سنة ١٩٧٢م [٥، ص ص ٤٠-٤٢] أن الثنائي أكثر تسامحًا مع الأقليات وأن مواقفه من الأقليات أكثر إيجابية من الأحادي. ويمكن تفسير هذه الظاهرة على أساس أن الثنائي حين يعرف لغة غير لغته الأم فإنه يصبح أقرب إلى فهم أهل لـ٢ من نظيره الذي لا يعرف لـ٢ على الإطلاق. إن اللغة تقرب الناس من بعضهم البعض وتكسر الحواجز بينهم وتنقل الأفكار والثقافة. وعلى ما في هذا من خطورة في بعض الأحيان، إلا أن فيه بعض المكاسب في الوقت ذاته.

الثنائية اللغوية والوظائف المعرفية

هل تؤثر الثنائية في العملية المعرفية cognitive process في الإدراك، في طريقة التفكير؟ يرى ليوبولد Leopold في دراسته الطولية لابنته سنة ١٩٤٩م أن الثنائية توسع المجال المعرفي للطفل وأنها تقضي على الاقتران الخاطىء بين الشكل الصوتي للكلمة ومعناها. ولقد أكد وورال Worrall [٦، ص٨٥] هذا الرأي في دراسة مقارنة بين مجموعة أحادية وأخرى ثنائية. وتعتمد الدراسة على سؤال الفرد عن أي الكلمتين أشبه بالثالثة. مثال ذلك cap, can, hat. أيهما أشبه بـ can: cap أم hat ؟ ولقد وجد أن الأحاديين يميلون إلى اختيار الكلمة الأشبه صوتيًا وأن الثنائيين يميلون إلى اختيار الكلمة الأشبه دلاليًا سواء أكانوا صغارًا في السن أم كبارًا، في حين أن الاختبار الدلالي كان يظهر في حالة الأحاديين الكبار في السن ولا يظهر في حالة الأحاديين الصغار في السن.

وقام وورال بدراسات ثلاث أخرى على هذا النحو:

١- أعط تفسيرًا للأسماء. مثلاً لماذا سمي القلم قلمًا؟

٢- افترض أنك تستطيع إعادة تسمية الأشياء من جديد، فهل تستطيع أن تسمي القلم مسطرة والمسطرة قلمًا؟

٣- دعنا نلعب هذه اللعبة. دعنا نُسَمِّ الكلب بقرة. فهل لهذه البقرة قرون؟ هل تعطينا البقرة حليبًا؟ هل تنبح البقرة.

في الدراسة الأولى: لم تكن هناك فروق بين إجابات الأحاديين وإجابات الثنائيين على اختلاف أعمارهم. وفي الدراسة الثانية، أجاب ٢٠٪ من الأحاديين و٥٠٪ من الثنائيين أنه

يمكن تبادل الأسماء بين الأشياء. وفي الدراسة الثالثة تبين أن الأطفال الأكبر سنًّا كانوا أكثر استعدادًا من الأصغر سنًّا لتبديل أسماء الأشياء التي يلعبون بها وأنه لا فرق بين الأحاديين والثنائيين هنا.

وعن العلاقة بين الثنائية والنشاط العقلي، توصل بيل Peal ولامبرت Lambert [١، ص ص ١٨٣-١٨٤] إلى أن التحليل العاملي لواحد وثلاثين متغيرًا يدل على أن الثنائيين يتمتعون بسمات عقلية أكثر تنوعًا من الأحاديين، وأن الثنائيين أفضل من الأحاديين في اختبارات المرونة العقلية وتكوين المفاهيم وإكمال الصور ومعالجة الأشكال. وتفسير هذه الظاهرة أن الثنائي اعتاد على عملية إعادة الترميز، فهو يعرف كلمة رمزًا لمعنى ثم يعرف كلمة أخرى من لغة أخرى لتكون رمزًا للمعنى نفسه. ويستطيع الثنائي أن يوسِّع هذه العملية ويطبقها في أحوال عديدة مشابهة، وهذه ميزة يفتقر إليها الأحادي. وهكذا يستطيع الثنائي فصل الصفات عن الكلمات. وبذا يكون الثنائي أقدر من الأحادي في مجال إدراك المفاهيم المجردة والعلاقات المجردة.

ولقد دلت بعض الدراسات على أن الثنائي أكثر طلاقة ومرونة وإبداعًا في الوظائف المعرفية cognitive functions من الأحادي، وأن الثنائي أقدر من الأحادي في تسمية الأعمال واستخدام الأسماء في جمل. وقد يعزى بعض من هذه الميزات إلى أن الثنائي خاض تجربة لم يمر بها الأحادي، ألا وهي تجربة تعلُّم اللغة الثانية. هذه التجربة أكسبت صاحبها سعة أفق وقدرة على التكيف والتأقلم والمعالجة الذهنية. ودلت دراسات أخرى على أن الثنائية ليست ذات أثر سيىء على العمليات المعرفية، أي أن هذه الدراسات اكتفت بنفي التأثير السلبي للثنائية.

كما أن الثنائية قد تؤدي إلى ميزة حتى بالنسبة للغة ١، حيث ينتقل أثر التعلم من ل٢ إلى ل١، مما يُكسب الثنائي مزيدًا من التبصر في لغته الأولى في ضوء التجارب التي اكتسبها من خبرته في تعلم ل٢. وهكذا فقد يكون الثنائي أكثر تبصرًا في طبيعة ل١ من الأحادي ذاته.

كما أن أية مهـارات يكتسبها الثانئي في ل٢ قد ينتقل أثرها إلى ل١. فإذا أتقن القراءة والفهم في ل٢ أو تحسنت أساليب كتابته في ل٢ أو اكتسب قدرة حوارية أو محادثية في ل٢، فلا شيء يمنع انتقال هذه المهارات إلى ل١. ومن المعروف أن كثيرًا من التعلم الواعي في مجال ما يؤدي إلى تعلم غير واع في مجالات أخـرى. ولهـذا فالتعلم الواعي للغة ٢ ينتقل إلى المهارات اللغوية في ل١ ويقويها.

ويبدو بصفة عامة أن الثنائية لها تأثير إيجابي على العمليات المعرفية. ويبدو أن الثنائي أكثـر إدراكًا لاعتباطية العلاقة بين الشكل الصوتي للكلمة ومعناها من الأحادي. وهذا بدوره يجعل الثنائي أكثر قدرة على التفكير التجريدي والترميز من الأحادي. كما أن الثنائي أكثر مرونة في العمليات المعرفية من الأحادي. والثنائي يستخدم قدرته في ل٢ لتطوير أدائه في ل١ على أساس مبدأ انتقال أثر التعلُّم.

ولكن لابد من التحفظ عند الأخذ بهذه النتائج. فهي ليست قطعية الثبوت. ويبدو أن هناك تحيزًا لدى الباحثين للثنائية، لأنه يبدو أن لا أحد يريد أن يقول للناس لا تتعلموا لغة ثانية. إن الموجة التي يريد أن يركبها الناس في عصرنا هذا هي موجة تعلم اللغات الثانية والثالثة. فمن سيقول لهم: اللغة الثانية خطر؟ وبالطبع، فإن البحث العلمي لا يعطي الناس النتائج التي يفضلونها. بل يعطيهم النتائج المطابقة للحقيقة أو الأقرب إلى الحقيقة. ولهذا فقد تأتي دراسات قادمة تعطي نتائج مخالفة للدراسات التي تم استعراضها في هذا المبحث.

اختـــلاف نتائـــج الدراســـات

لقد قامت دراسات عديدة تبحث في تأثير الثنائية اللغوية على الفرد في مجالات الذكاء واللغة والتحصيل الدراسي والشخصية والوظائف المعرفية. ولقد اختلفت نتائج الدراسات، بل وتناقضت في كثير من الحالات.

فلقد توصلت بعض الدراسات إلى أن الثنائية تؤدي إلى محدودية المفردات ومحدودية التراكيب النحوية وأخطاء في نظم الكلمات وأخطاء في النحو والصرف، وتؤدي إلى التردد

واللعثمة. ولقد دلت دراسة على أن الثنائي يعرف ٥٤٪ من الكلمات التي يعرفها قرينه الأحادي باللغة المشتركة بينهما. ودلت دراسة أخرى على أن الثنائي يتخلف حوالي ثلاث سنوات في مهارة القراءة ويتخلف سنة في الحساب عن قرينة الأحادي. ودلت دراسة على أن الثنائية تضر بالذكاء والعمليات المعرفية وأن الأحادي يتفوق على الثنائي في العمر العقلي واختبارات الذكاء اللفظية والعملية.

وفي الدراسات الحديثة، بعد سنة ١٩٦٠م، أعطت الدراسات نتائج مختلفة عما سبق. فظهر أن الثنائي يتميز بإحساس لغوي وأنه أكثر إدراكًا للفروق بين اللغات وأقدر على تعلم لغات جديدة من الأحادي وأنه أكثر دافعية وأعلى تحصيلاً دراسيًا وأعلى ذكاء وأكثر مرونة فكرية وأكثر إبداعًا وأصالة في التفكير وأكثر تسامحًا مع الأقليات مقارنة بالأحادي. ولكن يبدو أن هذه الدراسات فشلت في الإجابة عن السؤال الآتي: هل الثنائيون أكثر ذكاء من الأحاديين لأنهم ثنائيون أم لأنهم أكثر ذكاء من الأساس؟ أو هل الثنائية سبب الذكاء أم أن الذكاء هو سبب الثنائية؟

وفي السنوات الأخيرة، اتجهت الدراسات إلى محاولة معرفة سبب النتائج السلبية للدراسات على الثنائية قبل سنة ١٩٦٠م والنتائج الإيجابية للدراسات بعد سنة ١٩٦٠م. وظهر اتجاه ثالث يرى أن الثنائية لا تؤثر على الفرد لا سلبًا ولا إيجابًا.

وعزت هذه الدراسات الأخيرة سبب النتائج السلبية للثنائية لا إلى الثنائية ذاتها، بل إلى ظروف بيئية. فإذا كان الطفل ضعيفًا في ل١ بسبب عدم تعرضه لها في البيت بشكل كاف، فإن تعرضه للغة ٢ سيُضْعِف ل١. كما أن ضعفه في ل١ سيزيد من ضعفه في ل٢. لابد أن يذهب الطفل إلى المدرسة وهو يتقن ل١. وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فلابد من تعليمه ل١ قبل أن يتعلم ل٢، لأن تعلم ل٢ قبل استكمال تعلم ل١ يدمر ل١ ول٢ معًا.

وبالنسبة لتأثير الثنائية على التحصيل الدراسي، فإن الأمر واضح للغاية. إذا كانت لغة التعليم هي ل٢ وكان الطفل ضعيفًا في ل٢، فإنه سيعاق دراسيًا بالتأكيد. أما إذا كان

الطفل يتقن ل٢، فلا يعاق دراسيًا. وإذا حصلت الإعاقة في هذه الحالة الأخيرة فالسبب ليس في الثنائية ذاتها، إذ ربما يكون في فقر الأسرة أو في عدم استقرار الطفل انفعاليًا أو في سوء صحة الطفل أو في عدم شعور الطفل بالأمن النفسي أو في صراع الثقافتين أو في الموقف المعادي الذي تقفه الأكثرية منه أو في أسباب أخرى.

وبالنسبة لتأثير الثنائية على الذكاء فأكثر الدراسات وقعت في أحد أخطاء ضبط المجموعات، إذ لم تضبط الجنس أو العمر أو المكانة الاجتماعية الاقتصادية. وبعضها وقع في خطأ يتعلق بطريقة اختيار العينة الثنائية. وبعضها استخدم اختبارات ذكاء مصاغة بلغة لا يتقنها الثنائيون جيدًا. وبعضها استخدم اختبارات متحيزة لحضارة أو بيئة دون أخرى. وبعضها لم يضبط عامل الفرصة التعليمية.

أسباب اختلاف النتائج

ومن أسباب اختلاف نتائج الدراسات التي أجريت على تأثير الثنائية اللغوية مايلي:

(١) عدم ضبط العوامل. لابد عند المقارنة بين مجموعة أحادية وأخرى ثنائية من ضبط العوامل المؤثرة أو تحييدها. فإذا أردنا دراسة تأثير الثنائية على الذكاء، لابد من التأكد من أن المجموعتين متساويتان في كل العوامل باستثناء عامل الثنائية والأحادية موضع الدراسة. وهذا يعني أنه لابد من تحييد عوامل مثل العمر والجنس (ذكر أو أنثى) وسنوات التعليم ومستوى الأسرة. فإذا أجريت دراسة دون ضبط العوامل، فإن الفرق في الذكاء لا يمكن الجزم بسببه. فقد يكون السبب أحد العوامل غير المضبوطة أو جميعها أو الثنائية. وفي هذه الحالة لا يمكن الجزم بمسؤولية عامل واحد ولا بمسؤولية الثنائية عن هذا الفرق في الذكاء بين المجموعتين. وهكذا فإن جميع الدراسات التي لم تضبط العوامل ذات العلاقة related factors دراسات لا يمكن الأخذ بنتائجها.

(٢) اختلاف أنواع الثنائية. في كثير من الحالات درست الأبحاث حالات مختلفة من الثنائية. فالثنائية المتوازنة balanced bilingualism تختلف تمامًا عن الثنائية غير المتوازنة. والثنائية الطلقة fluent bilingualism تختلف عن الثنائية غير الطلقة. والثنائية الطبيعية

natural bilingualism تختلف عن الثنائية الاصطناعية artificial bilingualism . والثنائية التكاملية complementary bilingualism تختلف عن الثنائية غير التكاملية. والثنائية الاختيارية تختلف عن الثنائية الإجبارية. والثنائية المتزامنة simultaneous bilingualism تختلف عن الثنائية المتتابعة sequential bilingualism . رغم الفروق الجوهرية بين هذه الثنائيات إلا أن كثيرًا من الدراسات أشارت إليها على أنها ثنائية وكفى. فهل الثنائي الذي يتقن ل١ ول٢ مثل الثنائي الذي يتقن ل١ ولا يتقن ل٢ أو الثنائي الذي لا يتقن أيًا منهما؟ طبعًا الدراسة التي تُجرَى على عينة من مثل الثنائي الأول ستعطي نتائج مختلفة عن دراسة تجرى على عينة من مثل الثنائي الثاني أو الثالث. وهل الثنائي الذي تعلم ل٢ في جو طبيعي مثل الثنائي الذي تعلمها في جو الصف الاصطناعي؟ وهل الثنائي الذي يتكلم ل١ في مواقف معينة ول٢ في مواقف أخرى مثل الثنائي الذي يستطيع أن يتكلم أية لغة من اللغتين في أي موقف؟ وهل الثنائي الذي اختار أن يتعلم ل٢ مثل الثنائي الذي أجبر على ذلك؟ وهل الثنائي الذي تعلم ل١ مع ل٢ وهو دون الثالثة مثل الثنائي الذي تعلم ل٢ وهو في سن الثانية عشرة؟ وهل الثنائي ذو الدافعية العالية في تعلم ل٢ مثل الثنائي ذي الدافعية المتخفضة؟

إذا كان نوع الثنائي الذي تُجرى عليه الدراسة س يختلف عن نوع الثنائي الذي تُجرَى عليه الدراسة ص، فإن الاحتمال كبير جدًّا أن تكون نتائج الدراسة س تختلف عن نتائج الدراسة ص. وفي والواقع، يصعب التحدث عن الثنائية مطلقًة، إذ لابد من وصفها: هل هي متزامنة، متتابعة، متوازنة، غير متوازنة، تكاملية، طبيعية، اصطناعية، إنتاجية، استقبالية، اختيارية، إجبارية؟ بدون وصف وتحديد، تكون الثنائية كلمة واسعة فضفاضة غامضة. وهذا مما جعل الباحثين يتكلمون عن أشياء مختلفة رغم أنهم يستخدمون مصطلحًا واحدًا هو الثنائية اللغوية، الأمر الذي جعل نتائجهم متضاربة في كثير من الحالات.

(٣) تحيز الأدوات. بعض أدوات قياس الذكاء كانت تستخدم لغة لا يتقنها الثنائي ويتقنها الأحادي. في هذه الحالة تتحيز أداة القياس للأحادي ضد الثنائي. وكانت بعض

أدوات قياس الـذكـاء تتحيز للأحادي من خلال تأسيس الاختبار على ثقافته وبيئته لأن الاختبار مصمم أساسًا بلغته أو لأن الباحث ذو لغة أولى تتطابق مع لغة الأحادي. وهذا تحيز آخر لصالح الأحادي ضد الثنائي. وكانت بعض اختبارات اللغة تقيس قدرة الثنائي في اللغة التي لا يتقنها وباللغة التي لا يتقنها. وهكذا فقد كانت كثير من أدوات القياس تتحيز لغويًا أو ثقافيًا للأحادي ضد الثنائي الأمر الذي يجعل مثل هذه الدراسات مشكوكًا في أمرها.

(٤) التفسير الخاطىء. بعض الدراسات إذا نجت من عدم ضبط العوامل وعدم تحديد نوع الثنـائية وتحيز الأدوات، كانت تقـع في ورطـة التفسير الخاطىء. فقد يكون صحيحًا أن مجموعة من الثنائيين أكثر ذكاء من مجموعة من الأحاديين على سبيل المثال. ولكن ليس تفسير الظاهرة مردة دائمًا إلى أن الثنائية هي سبب تفوق الذكاء، بل قد يكون العكس هو الصحيح. قد يكون تفوق الذكاء هو السبب في الثنائية. وبعبارة أخرى، هم ثنائيون لأنهم أذكياء وليسوا أذكياء لأنهم ثنائيون. وهذا خلط بين النتائج والأسباب. وإذا توصلت دراسة إلى أن الثنائيين أدنى في التحصيل الدراسي من الأحاديين، فليس تفسير هذا بالضرورة أن الثنائية هي السبب، بل قد تكون هناك عوامل تواكب الثنائية بالصدفة ولكنها ليست جزءاً من الثنائية. إن الفقر وسوء التغذية قد تؤدي إلى تدني التحصيل الدراسي أيضًا، وهما عاملان قد يصاحبان الثنائية في بعض الحالات، ولكنهما ليسا جزءاً منها. إن سوء التفسـير misinterpretation يسلب الـدراسـة أهميتهـا ويوقـع في الضـلال العلمي والاستنتاجات الخاطئة.

(٥) طول التجربة. في بعض الحالات، لا يظهر تأثير الثنائية في الذكاء أو التحصيل أو الشخصية في مدى قصير. هناك عوامل بشرية لا يظهر تأثيرها أو يتلاشى إلا في مدى سنوات. تأثير الثنائية على الذكاء لا يظهر في تجربة طولها شهر أو سنة أو سنتان. قد نحتاج وقتًا أطول لتبيُّن الأثر والقطع فيه. قد يكون للثنائية تأثير سلبي في أول الأمر، ثم يتلاشى. وقد تكون الثنائية عديمة التأثير في أول الأمر، ثم يظهر لها تأثير سلبي أو إيجابي بعد عدة سنوات. إن التجارب التي تُجرَى في وقت قصير قد تعطي نتائج مختلفة عن تجارب تجرَى في

سنوات. مدة الدراسة عامل مهم في مثل هذه الحالات. قد تكون الثنائية ضارة بالتحصيل الدراسي في أول الأمر، ثم تصبح بلا أثر سلبي أو إيجابي في المرحلة المتوسطة، ثم تصبح ذات أثر إيجابي في المرحلة المتقدمة. وقد يصدق الأمر ذاته على تأثير الثنائية على الشخصية والنمو اللغوي. وبالطبع هناك عوامل عديدة تتدخل حسب الحالات الفردية موضع الدراسة.

(٦) الاختبارات القَبْلية، حتى نتوصل إلى تأثير الثنائية على متغيِّر آخر، مثل الذكاء أو التحصيل، قد يكون مفيدًا أو ضروريًّا في بعض الحالات أن نقيس المتغير في أول الدراسة ثم نقيسه في آخرها في كلتا المجموعتين. ونحسب مقدار الفرق بين معامل ذكاء المجموعة الأحادية في أول الدراسة ومعامل ذكائها في آخرها على سبيل المثال. ونحسب الفرق بين معاملي ذكاء المجموعة الثنائية قبل الدراسة وبعدها أيضًا. ثم نقرر هل الفرق بين الفرقين ذو دلالة إحصائية أم لا. وكثير من الدراسات على الثنائية لم تلتفت إلى أمر القياس القَبْلي، واكتفت بالقياس البَعْدي post-testing، الأمر الذي يشكك في صحة نتائج مثل هذه الدراسات. والقياس القَبْلي pre-testing ضروري، إذ كيف سنتأكد من أن المجموعة س أكثر تحصيلاً من المجموعة ص لأن س مجموعة ثنائية وص مجموعة أحادية؟ من المحتمل أن المجموعة س ستكون أكثر تحصيلاً حتى لو كانت أحادية وأن المجموعة ص ستكون أدنى تحصيلاً حتى لو كانت ثنائية. قد يكون السبب لا علاقة له بالأحادية أو الثنائية. وقد تكون مجموعة ما أعلى تحصيلاً من مجموعة أخرى قبل بداية التجربة واستمرت ميزاتها إلى نهاية التجربة. وقد تكون مجموعة ما أعلى تحصيلاً قبل بداية التجربة وكان العامل التجريبي ضدها فتعادلت المجموعتان في نهاية التجربة وكان العمل التجريبي ضدها فتعادلت المجموعتان في نهاية التجربة، وكانت النتيجة الظاهرية أن العامل التجريبي عديم الأثر مع أنه في الواقع ذو أثر تلاشى بسبب رجحان مجموعة على الأخرى منذ البداية. إن القياس القَبْلي يجعل الدراسات أكثر دقة، بل إن القياس البَعْدي وحده في بعض الحالات يجعل الدراسة عديمة الجدوى.

(٧) اختيار العينة. قد ينشأ الخلل في البحث من تحيز في اختيار العينة sample selection. فإذا كان الأحاديون قد اختيروا من الممتازين في دراستهم واختير الثنائيون من

المتخلفين في الدراسة، كانت الدراسة متحيزة للأحاديين منذ البداية وستكون النتائج في صالح الأحاديين بلا ريب. وإذا اختير الأحاديون عشوائيًا واختير الثنائيون بطريقة غير عشوائية، فهذا أيضًا سيؤدي إلى خلل في البحث وقد يكون ذلك لصالح فئة دون أخرى. لابد من الحيطة في اختيار العينة ولابد من استخدام أسلوب واحد في تكوين العينة، لأن التحيز في اختيار العينة يهدم الدراسة منذ بدايتها. وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه بعض الدراسات، إذ اختارت البارزين من الثنائيين أحيانًا واختارت عينة عشوائية من الأحاديين، أي اسُتخدِمت طريقتان في اختيار العينتين في الدراسة ذاتها.

(٨) حجم العينة. بعض الدراسات استخدمت عينة محدودة الحجم، مثلاً عينة من فردين أو أربعة أو ستة. مثل هذه العينات لا تقدم نتائج عالية الثبات، ويصعب الوثوق بنتيجة اعتمدت على عدد محدود من الأفراد. فكلما زاد عدد أفراد العينة، زاد وزن الدراسة وزاد الوثوق بنتائجها بشرط السيطرة على العوامل ذات العلاقة والاهتمام بشروط البحث الأخرى. ولهذا كانت نتائج بعض الدراسات تختلف عن نتائج دراسات أخرى، ربما بسبب الاختلاف الواضح في حجم العينات sample size : دراسة تعمل على فردين ودراسة تعمل على ألف فرد. من المتوقع اختلاف النتائج إذا كانت دراسة ذات عينة صغيرة جدًا ودراسة أخرى ذات عينة كبيرة جدًا وخاصة إذا كانت الدراسة على عناصر بشرية وفي مجالات معقدة مثل الثنائية والذكاء والمعرفة.

(٩) الإفراط في التعميم. بعض الدراسات على الثنائية كانت على ثنائيين من النوع التزامني، فجاءت الدراسة تُعَمِّم الاستنتاجات على جميع أنواع الثنائية. وبعضها كان على ثنائيين من النوع المتوازن، فَعُمِّمَ الاستنتاج على النوع غير المتوازن. وبعضها كان على النوع غير المطلق فعمم الاستنتاج على المطلق وغير المطلق. وبعض الدراسات لم يتجاوز في التعميم حدود الدراسة. وهذا أمر مهم، إذ لابد أن تلتزم الدراسة حدودها والإفراط في التعميم يخرج الدراسة من دائرة الدقة إلى دائرة التخمين. لابد من توخي الحذر في تحديد دائرة التعميم وفقًا لمواصفات العينة التي أجريت عليها الدراسة. فما ينطبق على الأطفال قد لا ينطبق على البالغين، وما ينطبق على نوع من الثنائيين قد لا ينطبق على نوع آخر. وكان

هذا الإفراط في التعميم overgeneralization في بعض الدراسات سببًا في تناقض النتائج مع دراسات التزمت جانب الحذر في التعميم.

(١٠) أدوات القياس. لقياس معامل الذكاء مثلاً لابد من استخدام أداة مقننة stan-dardized instrument ثبت صدقها وثباتها. فإذا استخدمت أداة غير مقننة ولم يثبت أنها صادقة ثابتة، كان ذلك مصدر خلل كبير في الدراسة. ولقياس القدرة اللغوية، لابد من استخدام أداة صادقة ثابتة. ولقد عانت بعض الدراسات على الثنائية من استخدام أدوات قياس لم تكن قد قُنِّنت ولم يكن قد تُيُقِّن من صدقها validity وثباتها reliability. مثل هذه الاستخدامات تُلْقي شكًا على نتائج الدراسات وتفسر سبب اختلاف نتائج دراسة عن نتائج أخرى في بعض الحالات.

(١١) المعالجة الإحصائية. بعض الدراسات على الثنائية، وخاصة بين سنة ١٩٢٠م وسنة ١٩٥٠م، لم تستخدم أساليب المعالجة الإحصائية statistical processing الفعالة. فقد كانت ترى أي فرق في التحصيل الدراسي أو معاملات الذكاء أو الدرجات فرقًا مهما وكانت تبني على أساسه أن الأحادي أفضل أو الثنائي أفضل. ولقد تبين في بعض الحالات أن مراجعة الدراسات السابقة إحصائيًا تعطي نتائج معاكسة لما كانت تلك التجارب قد توصلت إليه. فلقد توصلت دراسة سابقة إلى أن الأحادي أفضل من الثنائي، ولدى إخضاع الدرجات لمعادلات الكشف عن الدلالة الإحصائية للفرق تبين أن الفرق غير دال إحصائيًا، أي أنه فرق غير مهم. عدم إخضاع الفروق بين الأحاديين والثنائيين لاختبارات الدلالة الإحصائية قد أعطى نتائج غير صحيحة في بعض الحالات.

خاتمة

لقد دلت بعض الدراسات على أن الثنائية اللغوية تضر بالذكاء (دراسة وزغيربر ودراسة ساير). ودلت بعض الدراسات على أن الثنائية تنمِّي الذكاء (دراسة بيل وزميله)، في حين أن بعض الدراسات دلت على أن الثنائية لا تؤثر في الذكاء (دراسة لامبرت وزميله).

وبالنسبة لتأثير الثنائية على المهارات اللغوية، دلت بعض الدراسات على أن الثنائية تضر بالمهارات اللغوية (دراسة ماكنمارا). ودلت بعض الدراسات على أن الثنائية تضر ببعض المهارات اللغوية ولا تؤثر في البعض الآخر (دراسة كارو). ودلت بعض الدراسات على أن الثنائية ترفع من مستوى الفرد في المهارات اللغوية (دراسة أنستاسي ودراسة توتن).

وبالنسبة لتأثير الثنائية على التحصيل الدراسي، دلت بعض الدراسات على أن الثنائية تضر بالتحصيل الدراسي بشكل عام (دراسة جنسن). ودلت دراسات أخرى على أن الثنائية تساعد على التحصيل الدراسي.

وفيما يتعلق بتأثير الثنائية على التكيف الانفعالي، دلت بعض الدراسات على أن الثنائية أحيانًا تؤدي إلى التوتر وعدم الاستقرار الانفعالي. ودلت دراسات أخرى على أن الأمر يختلف من فرد إلى آخر. ودلت دراسات أخرى على أن الثنائية تجعل الفرد أكثر تسامحًا مع الأقليات من الفرد الأحادي.

وفيما يتعلق بتأثير الثنائية على الوظائف المعرفية، دلت بعض الدراسات على أن الثنائية تؤدي إلى مزيد من المرونة العقلية وإدراك المفاهيم المجردة (دراسة وورال ودراسة بيل ولامبرت). ودلت دراسات أخرى على أن الثنائية ليست بذات تأثير على الوظائف المعرفية.

وهكذا، فإننا نرى اختلاف نتائج الدراسات بشأن تأثيرات الثنائية اللغوية، ويرجع هذا الاختلاف إلى عدة أسباب. من أهم هذه الأسباب عدم ضبط العوامل في بعض الدراسات، وعدم تحديد أنواع الثنائية موضع الدراسة، وتحيز أدوات القياس للأحاديين أو الثنائيين، والتفسير الخاطىء للنتائج، واختلاف الدراسات في الطول الزمني للتجارب أحيانًا، وإهمال الاختبارات القبلية غالبًا، والتحيز في اختيار الأحاديين أو الثنائيين، وصغر حجم العينة أحيانًا، والإفراط في التعميم، واستخدام أدوات قياس لم يتأكد صدقها، وعدم استخدام المعالجات الإحصائية المناسبة.

ورغم كل ما قيل، فإنه لا مفر من تعليم اللغة الأجنبية في مدارسنا في بلادنا العربية بشرط أن يتم ذلك في المرحلة التعليمية المناسبة ودون إضرار باللغة الأم، التي هي اللغة العربية. ويميل معظم المختصين إلى اعتبار بداية المرحلة المتوسطة (أي الإعدادية) المرحلة الأنسب لبدء تعليم اللغة الأجنبية أي سن الثانية عشرة تقريبًا، لأن البدء الأبكر يعرض اللغة العربية لدى الأطفال للضرر ولأن تأخير البدء عن هذا السن لا يحقق المنشود من تعليم اللغة الأجنبية.

المراجـــع

[١] Mclaughlin, B. *Second-Language Acquisition in Childhood.* Hillsdale, N.J.: Lawrence Erlbaum Associates, 1978.

[٢] Grosjean, F. *Life with Two Languages.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 1982.

[٣] Hoffman, M.N. *The Measurement of Bilingual Background.* N.Y.: Columbia University, 1934.

[٤] Gumperz, J. *Language in Social Groups.* Stanford: Stanford University Press, 1971.

[٥] Lambert, W.E. and Tucker G.R. *Bilingual Education of Children.* Rowley, MA: Newbury House, 1972.

[٦] Maltitz, F. *Living and Learning in Two Languages.* N.Y.: Mc Graw- Hill, 1975.

The Influences of Bilingualism

Mohammad Ali Alkhuli
Professor, Teacher Prepartion Department, Arabic Language Institute,
King Saud University, Riyadh, Kingdom of Saudi Arabia

Abstract. This paper aims at explicating the influences of bilingualism (B) on intelligence, language skills, academic achievement, emotional adaptation, and cognitive functions. It also aims at introducing relevant studies and exploring the reasons underlying differences in conclusions. This paper has reached the following conclusions:

1. Some studies indicated that B hurts intelligence. Others indicated B develops it and others indicated B has no influence.

2. Some studies indicated that B hurts all language skills. Others indicated B enriches those skills and others indicated B hurts only some skills.

3. Some studies indicated that B has a positive effect on acaemic achievement. Others indicated B has a negative effect.

4. Some studies indicated that B influences emotional adaptation positively. Others indicated a negative effect. Others indicated that the influence varies according to individual cases and circumstances.

5. Some studies indicated that B develops abstraction ability and mental flexibility. Others reported no effect.

6. Different studies have given different conclusions owing to one or more of these reasons: lack of factors control, dealing with different types of B, bias of instruments, misinterpretation, differences in experimentation periods, negligence of pre-testing, sampling bias, differences in sample size, overgeneralization, usage of unreliable instruments, and inadequate statistical processing.